بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهده اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أَن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أَنَّ محمداً عبده ورسوله، خاتمُ النبيين، وإمامُ المرسلين، وحجةُ الله على خلقه أجمعين، بعثه اللَّهُ تعالى بالدينِ القويم، والصراطِ المستقيم، وجعلَ رسالتَه عامةً للناس إلى يوم الدين، صلى اللَّهُ عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته، واهتدى بهديه.

وبعد: فإنَّ الله جلَّ ثناؤُه، وتقدست أسماؤُه، بعث محمداً ﷺ بالهدى ودينِ الحق ليُظهِرَهُ على الدين كُلِّه ولو كره المشركون.

وأنزل عليه كتابَه الذي هو أصلُ دينه، فيه الهدىٰ والنورُ لمن اتَّبعه، وجعلَ رسولَه الدالَّ على ما أرادَ مِنْ خاصِّهِ وعامِّهِ، وظاهرِهِ وباطنه، ومُجملِهِ ومُفصَّلِه، وما قصدَ له الكتابُ، فكان ﷺ بسُنَّته القوليةِ والفعليةِ هو المُعَبِّرَ عن كتاب الله، الدالَّ على معانيه، الهاديَ إلى طُرُقِ تطبيقه.

وقد عُني صحابةُ رسول الله ﷺ بما صدرَ عنه ﷺ من أقواله وأفعاله، فحفظوها في صدُورهم، وقيَّدَ بعضَها عددٌ غيرُ قليلٍ منهم في الصُّحُف، ثم كانت موضعَ عنايةِ العلماءِ الجهابذةِ في القرونِ الزاهيةِ المشهودِ لها بالفضل، فسَمَتْ همَّتُهم إلى لَمِّ شتَاتها، وتَلَقِّيها من أفواهِ سامعيها، وصدورِ حامليها، وحفظِها وتقييدها، وتدوينها في المسانيدِ، والصحاحِ، والسُّنَنِ، والمعاجمِ، والأجزاءِ، بدقَّةٍ بالغةٍ، وعنايةٍ لا نظيرَ لها.

وما زالت عنايةُ العلماءِ مستمرةً في خدمةِ السنةِ النبوية المطهرة جمعاً وشرحاً وانتقاءً، فكان من ذلك تآليفُ كثيرةٌ ماتعة، منها ما طُبِع، وانتشر وتداولَهُ الناسُ، ومنها ما زال قابعاً في المكتبات العامة ينتَظِرُ من يقومُ بتحقيقه وإخراجه.

وممن أسهمَ في التأليف في الحديثِ الشريفِ الإمامُ النوويُّ رحمه الله، وهو من رجالاتِ القرنِ السابعِ الهجري، المشهودُ له بالإمامةِ في الحديثِ والفقه واللغةِ، فألَّف «شرح صحيح مسلم» وهو من

obeikandi.com

أتقن الشروحِ وأوفاها وأبرعها، وكتابَ «الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار» و«التقريبَ» و«الإرشاد» وكلاهُما في مصطلح الحديث، و«الخلاصة» في أحاديث الأحكام، و«الأربعين النووية»، وشرح قطعةً من «صحيح البخاري»، وفي شرح «المهذب» تخريجٌ للأحاديثِ النبوية، ودراسةٌ لأسانيدها، وتنقيدٌ لرواتها، وكلُّها تدلُّ على قوةِ حفظِه، وسعةِ اطِّلاعِه، وبراعةِ نقدِه، وإمامتِه في هذا الفن.

ومِن أجودِ ما ألَّفه في هذا الباب كتابُ «رياض الصالحين» الذي نُقدِّمه للقراء بطبعتِه المحققةِ المتقنة، وهو أعلىٰ قدراً، وأرفعُ منزلةً من أن يُنَوَّهَ به، أو يُشادَ بذكرِه فإنَّه من أوسعِ كتبِ الحديث انتشاراً، وأكثرِها تداولاً، فقد طبَّقت شهرتُه الآفاقَ، واحتلَّ منزلةً سامقةً في نفوسِ العلماءِ والكتابِ والخطباءِ والعامة.

وقد أَولاهُ عنايةً تامةً، فانتقى أحاديثَه من مَرْوِيَّاتِ أهلِ العدالةِ والضبطِ من رُواةِ الحديثِ النبويِّ الشريف كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وجمع شملَها، ورتَّبها أحسنَ ترتيب، ونَظَمها أحسنَ نظام، والتزمَ ألاَّ يذكُرَ فيه إلا ما صحَّ من الأحاديث، وقد تبيَّنَ لي من دراسةِ الأسانيد في التخريج أنَّه قد وفَّى بالتزامِه ذلكَ إلا في قليلٍ مِن الأحاديثِ لم ينشطْ للبحثِ في أسانيدها والكشفِ عن حالها، فاعتمد تحسينَ غيره كالترمذي وسكوتَ أبي داود كما سأُبيِّنُه قريباً.

وقد قسَّمه إلى كُتُب، والكُتُبَ إلى أبواب، فجعلَ الكتابَ عنواناً للأحاديث التي تندرج تحت أبوابٍ كثيرة من جنسٍ واحد، وجعل البابَ عنواناً لطائفةٍ من الأحاديثِ التي تدلُّ على مسألةٍ خاصةٍ بعينها، وجملةُ ما فيه من الكتب، سبعة عشر كتاباً، وما فيه من الأبواب ٢٦٥ باباً، وجملةُ ما فيه من الأحاديث (١٨٩٧) حديثاً.

ودرجَ على أن يفتَتِح أكثرَ الأبواب بآياتٍ من كتابِ اللَّهِ تعالى تُناسِبُ موضوعَ الأحاديثِ التي جاءت فيه، وذلك أَنَّ السنةَ النبويةَ الصحيحةَ في جُملتِها وتفصيلها بيانٌ للكتابِ الكريم، وكلُّ ما تشتملُ عليه من أحكام أصلُه في القرآن بقواعده الكُلِّية، وإِنْ لم يكن بأحكامِه الجزئيةِ في كل الأقوال. يقولُ الشاطبيُّ رحمه الله: «إنَّ السُّنَّة راجعةٌ في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيلُ مُجمله، وبيانُ مُشكلِه، وبسطُ مُختصره، وذلكَ لأنَّها بيانٌ له، وهو الذي دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وأَنْزَلنا إِليكَ الذِّكْرَ لتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾، فلا تجدُ في السنةِ أَمراً إلا والقرآنُ دلَّ على معناهُ دلالةً إجماليةً أو تفصيلية.

وغرضُ المؤلف رحمه اللَّهُ من تأليفه هذا أن يضعَ بين يدي المسلم الأحاديثَ النبويةَ الواضحةَ الدلالة التي لها أثرٌ كبيرٌ في تقويةِ الإيمانِ بالله، وتوثيقِ الصلةِ به، وإخلاصِ العبادةِ له، وغرسِ محبةِ النبيِّ ﷺ في القلوب، وتوقيرِه، والاقتداءِ بهديه، والاعتصامِ بسُنَّته، وتزكيةِ النفوسِ وإصلاحِها،

وطهاراتِ القلوبِ وعلاجِها، وصيانةِ الجوارحِ وتقويمِ اعوجاجها، وغيرِ ذلك من المقاصدِ الساميةِ التي تُحقِّقُ لمبتغيها رضوانَ الله، وتُنيلهُ السعادةَ في الدنيا، والفوزَ والنجاةَ في الآخرة.

وغيرُ خافٍ أنَّ هذه الأحاديثَ التي اشتملَ عليها هذا الكتابُ صادرةٌ عن النبي المعصومِ الذي افترضَ اللَّهُ على العبادِ طاعتَه، واتباعَ سُنَّتِه، والرجوعَ إليها فيما اختلفوا فيه من شيءٍ، والرضى بها، والتسليمَ لها، وطرحِ ما سواها، وعدمِ الاعتدادِ بقولِ أحدٍ كائناً مَنْ كان إذا كان يُخالِفُها، أو يتأوَّلُها على غيرِ وجهها، وقد جاء ذلك صراحةً في عدةِ آياتٍ من كتابِ الله، فقال تعالى: ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ في مَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾ وقال: ﴿وأطِيعُوا اللَّهَ والرّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ وقال: ﴿ومَنْ يُطعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فأولٰئكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً﴾ وقال: ﴿مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فَقَد أطَاعَ اللَّهَ ومَنْ تولَّى فَمَا أَرسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ وقال: ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤمِنَةٍ إذَا قَضَى اللَّهُ وَرسُولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وقال: ﴿ومَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عنه فَانْتَهُوا﴾

فليسَ للمسلم الخيارُ في أن يأخُذَ من أحاديثه ﷺ ما شاءَ، ويَدَعَ منها ما شاء، أو يتردَّدَ في قَبُولها كما هو الشأنُ في الكُتُب التي تتضمَّن آراءَ الرجال وأفكارَهم واجتهاداتِهم، بل عليه أَنْ يأخُذَها كلَّها جملةً وتفصيلاً عن رضىً وطَوَاعيةٍ وخضوعٍ وتسليم.

الباعث على نشر الكتاب:

وعلى الرغمِ مِن القيمةِ العلميةِ التي يتمتَّعُ بها الكتابُ، فإنَّه لم يحظَ بالعنايةِ اللائقةِ به، فقد تداولت دورُ النشرِ في مصر والشام طبعَةُ طبعاتٍ خاليةً من التحقيقِ والتخريجِ والضبط، وأكثرُ هذه الطبعات شيوعاً وانتشاراً الطبعةُ التي نشرها الأستاذُ رضوانُ محمد رضوان، وهي أدنى إلى الصحةِ من غيرها، ومع ذلك ففيها عددٌ غيرُ قليلٍ من التحريفِ والتصحيفِ، فضلاً عن كونها عريَّةً عن التخريج، وعلى هذه الطبعة اعتمدت معظمُ دورُ النشر في دمشق وغيرها، فأخذَتْها بما فيها من أغاليطَ، مصورةً لها تارةً، ومُعَلِّقَةً عليها تارةً أخرى، بل ربَّما زادت عليها أخطاءَ لم تردْ فيها، فرأيتُ من النَّصَفَة لهذا الكتاب أَنْ أقومَ بنشرِهِ نشرةً صحيحةً دقيقةً توخَّيتُ فيها صحةَ النص وتخريجه، وتنقيدَ بعض ما فيه. ولم أُشِر إلى ما وقعَ في الطبعاتِ السابقة لهذا الكتاب من أخطاء رغبةً في الاختصار، وعدمِ إثقالِ الحواشي بما لا يعودُ على القارىء بكبير فائدة.

obeikandl.com

منهج التحقيق :

في دارِ الكتبِ الظاهريةِ بدمشق عدةُ أصولٍ خطية من هذا الكتاب، وقد نظرتُ فيها، فاخترتُ من بينها نسختين، فاعتمدتُهما في الطبع :

الأولى : تحت رقم (٣٢٦٩ عام) بمقياس ٢٥ × ١٨,٥ سم وتقع في ١٤٠ ورقة، في كل صفحة ٢٧ سطراً، وقع فيها نقصٌ من ورقة ٣٥ حتى ٥١، خطُّها واضحٌ وجيِّد، والناسخُ واحدٌ، وتاريخُ نسخها أصابَ مكانَه التلفُ في الأصل، فلم يَتَبَيَّنْ لنا، ويرجح أنَّها من القرن الثامنِ الهجري، وهي نسخةٌ جيدةٌ من حيث الضبط والصحة، فهي مقروءةٌ ومُقَابَلَةٌ، وقد زُيِّنت هوامشُها بشروحٍ وتعليقاتٍ طَفيفة، ورواياتٍ من نُسخ خطيةٍ أخرى، وبكلمة «بلغ» أو «بلغ مقابلة» دلالةٌ على المقابلة والضبط، وقد ذُكِرَ على صفحةِ الغلافِ ما نصُّه : «نسخة الأصل التي نُقلت هذه منها قُوبلت على نسخةِ الشيخِ التي بخطه» ونصُّ عنوان الكتاب فيها : رياض الصالحين من كلام رسول الله ﷺ . وقد تملَّكَ هذه النسخةَ ــ كما جاء في لوحة العنوان ــ المحدثُ الشيخُ إسماعيلُ العجلوني المتوفَّى سنة ١١٦٢ هـ، وهو صاحبُ «كشف الخفا ومُزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» .

الثانية : تحت رقم (٦٦٧٨ عام) مقياسها ٢٥ × ١٨ في كل صفحة ٢١ سطراً، وهي تامةٌ، وعددُ أوراقها ١٨٠ ورقة، وقد فرغ كاتبُها محمدُ بنُ علي من نسخها سنة ٧٣٨ هـ، استعمل ناسخُها الخطَّ النسخي مرةً، والفارسيَّ مرةً أخرىٰ، ولكنه التزم في عنوانات الكُتب والأبوابِ الخطَّ النسخي، وهذه النسخةُ أيضاً جيدةُ الخط، غير أنَّها أقلُّ ضبطاً من سابقتها. ونصُّ عنوان الكتاب فيها هو : رياض الصالحين ونزهة الطالبين، وقد تجنبتُ إثباتَ الاختلافِ فيما بين النسختين لعدمِ الفائدة، وأثبتُّ من الرواياتِ ما ينسجمُ مع الأصولِ التي اعتمدها المؤلفُ رحمه الله .

ولم أقتصر في التحقيق على هاتين النسختين، بل رجعتُ إلى المصادرِ التي نقلَ عنها المؤلفُ، وقابلتُ الأحاديثَ الواردةَ فيه عليها، وكان ذلك بالنسبة لي ميسوراً، لأنني اشترطتُ أَنْ أُخَرِّجَ الأحاديثَ كُلَّها من كتب السنة، وأدرسَ أسانيدَها كما هو واضحٌ في التعليق على كل حديث .

وقد حافظ المصنفُ رحمه الله على ألفاظ الأحاديثِ كما جاءت في المُصَنَّفات التي نقلَ عنها، ولم يُخِلَّ بذلك غالباً إلا في الأحاديثِ الطوال، فكان أحياناً يختصرُ بعضَ الجمل، ويروي بعضَها بالمعنى، أو يبدلُ لفظاً بآخر مرادف، ولم أشأْ إثباتَها في التعليقات لأنَّ ذلك لا يعودُ بكبير فائدةٍ على القارىء، وقد أجازَ غيرُ واحدٍ من المحققين اختصارَ الحديثِ وروايَته بالمعنى لمن كانَ عالماً بالألفاظ ومدلولاتِها ومقاصدِها، خبيراً بما يُحيلُ معانيها، بصيراً بمقادير التفاوتِ بينها، ولا يختلفُ أهلُ العلم أنَّ المؤلفَ رحمه اللَّهُ يُعَدُّ من هؤلاء. ولما كانَ البخاريُّ رحمه الله يُكَرِرُ الحديثَ في عدةِ مواطنَ من كتابه، ويوردُهُ

Obeikandl.com

بسياقاتٍ مختلفةٍ، فكان المؤلفُ ينتقي منها روايةً، ويُثبِتُها في كتابه، ولا يذكرُ الاختلافَ الذي جاءَ في بقيةِ الرواياتِ، وإذا كان الحديثُ قد اتَّفقَ على إخراجه البخاريُّ ومسلم، فإنه يختارُ لفظَ أحدهما وسياقَتَه، ويُنبِّهُ عليه فيقولُ: هذا لفظُ مسلم، أو لفظُ البخاري، وكثيراً ما يُغْفِلُ التنبيه.

٢ ــ خَرَّجْتُ جميع الأحاديثِ من مصادرِها التي رجعَ إليها المؤلفُ، وكثيراً ما زِدْتُ عليه في التخريج من المصادرِ التي لم يرجع إليها، وما كان منها في غيرِ الصحيحينِ فقد درستُ أسانيدَها، وتكلَّمتُ عليها بإيجازٍ من جهةِ الصحةِ والضعفِ وفقَ الأصولِ العلميةِ المتبعةِ في مصطلح الحديث، وقد تَبيَّن لي من خلال تلك الدراسةِ أنَّ الإمامَ النوويَّ رحمه الله مع حرصِهِ الشديدِ على تَوَخِّي إيرادِ الصحيحِ والحسنِ في كتابه قد وقع له عددٌ من الأحاديثِ الضعيفةِ، منها ما هو ضعيفٌ، ولم أَجِدْ له ما يُقوِّيه من الطرق والشواهد، وهي الأحاديث ذات الأرقام التالية:

(٦٦) و(٦٨) و(٩٣) و(١٩٦) و(٢٨٦) و(٣٤٣) و(٣٥٦) و(٣٥٩) و(٣٧٣) و(٤٠٨) و(٤٨٢) و(٤٨٤) و(٥١٩) و(٥٧٨) و(٥٩٦) و(٦٤٢) و(٧٥٨) و(٨١٢) و(٨٣٠) و(٨٨٩) و(٨٩١) و(٩٠٩) و(٩١٢) و(٩٨٣) و(١٠٠٠) و(١٠٦٠) و(١٠٩٦) و(١١٠٣) و(١٢٣٢) و(١٢٤٣) و(١٣٣٥) و(١٣٨٦) و(١٣٩٨) و(١٤٤٠) و(١٤٩٠) و(١٤٩٣) و(١٥٣٩) و(١٥٦٩) و(١٥٧٢) و(١٦٢٦) و(١٦٧٠) و(١٦٧٧) و(١٧٢٢) و(١٧٤٦) و(١٨٥٤) و(١٨٧٣). فهذه الأحاديثُ ضعيفةُ السند، وليس لها ما يشهدُ لها أو يُقَوِّيها، وقد تابع المؤلفُ رحمه الله الترمذيَّ في تحسينها وسكوتَ أبي داود، مع أنَّ العلماء قد نسبوا الترمذيَّ إلى التساهل في بعض ما يُحسِّنُه، وأنَّ سكوت أبي داود عن الحديث لا يُعَدُّ تقويةً له كما صرَّحَ بذلك غيرُ واحدٍ من الأئمة ومنهم المؤلف رحمه الله[1].

ومنها أحاديثُ ضعيفةُ السند، لكنها تتقوَّى بطرقٍ أخرى، أو بالشواهد، وهي ذات الأرقام التالية: (٤٣) و(٦٧) و(١٠٨) و(١٩٤) و(٣٦٧) و(٤٠٩) و(٤١٠) و(٤٧٢) و(٤٧٧) و(٤٧٨) و(٤٨٦) و(٥١١) و(٥١٥) و(٥٨٤) و(٥٩١) و(٦٢٦) و(٧٣٢) و(٧٤٣) و(٧٩٧) و(٨٠٧) و(٨٣٤) و(٨٣٦) و(٨٥٥) و(٨٦١) و(٨٨٧) و(٨٨٨) و(٨٩٠) و(٩٤٠) و(٩٤٢) و(٩٥٧) و(٩٨٠) و(١٠٤١)

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر عن النووي قوله: في سنن أبي داود أحاديث ظاهرة الضعف لم يبينها مع أنه متفق على ضعفها، فلا بد من تأويل كلامه.

ثم قال: والحق أن ما وجدناه في سننه مما لم يبينه ولم ينص على صحته أو حسنه أحد ممن يعتمد فهو حسن، وإن نص على ضعفه من يعتمد، أو رأى العارف في سنده ما يقتضي الضعف ولا جابر له حكم بضعفه، ولا يلتفت إلى سكوت أبي داود. قلت: وهذا هو التحقيق، ولكنه خالف ذلك في مواضع كثيرة في شرح «المهذب» وفي غيره من تصانيفه، فاحتج بأحاديث كثيرة من أجل سكوت أبي داود عليها، فلا تغتر بذلك. نقله عنه الصنعاني في «توضيح الأفكار» ١/١٩٩.

openilm.com

و(١٠٥٨) و(١١٥٩) و(١٢٢٨) و(١٢٥٦) و(١٣٤٠) و(١٣٨٤) و(١٣٨٥) و(١٤٣٩) و(١٤٤٢) و(١٤٨٧) و(١٤٨٩) و(١٤٩٢) و(١٥٠٠) و(١٥٢٠) و(١٥٥٦) و(١٥٩٧) و(١٦٤١) و(١٦٥١) و(١٧٥٦).

ومهما يكن من شيءٍ فإنَّ وجودَ هذه الأحاديث الضعيفة وعددُها ستةٌ وأربعون حديثاً لا تغُضُّ من قيمةِ هذا الكتاب العظيم، ولا تحطُّ من شأنه، فإنها لا تكادُ تُذكَرُ بجانب ذلك العددِ الضخمِ من الأحاديثِ الصحيحةِ التي اشتملَ عليها وهي (١٨٤٨) حديثاً.

٣ ــ إنَّ المؤلفَ رحمه اللّٰهُ قد شرحَ غريبَ الألفاظ التي جاءتْ في الأحاديث، لكنَّهُ لم يستوعب، ففسَّرْتُ ما أغفلَهُ مما لم يكن يراهُ بحاجةٍ إلى تفسيرٍ بالنسبةِ إلى عصره، معتمداً في ذلك على شروحِ الأئمةِ المتقدمين الثقاتِ من أمثال أبي سُليمان الخَطَّابي، وابن رَجَب الحنبلي، وأبي العباس القُرطُبي شارح «صحيح مسلم» وهو شيخ القرطبي المفسر، وعبدِ العظيم المنذري، وابنِ كثير، وابنِ حجر، وابنِ قيم الجوزية.

٤ ــ علَّقْتُ على بعضِ الأحاديثِ لبيانِ معناها العام الذي قد يلتَبِسُ على القارىء، كما ذكرتُ الفوائدَ والأحكامَ المُسْتَنْبَطَة من بعضِ الأحاديث مما جمعه شيخُ الحُفَّاظِ ابنُ حجرِ العسقلاني في «فتح الباري» عن العلماءِ الذين تمرَّسُوا بفقهِ النصوص، ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّني اعتمدتُ في تخريجِ أحاديثِ البخاريِّ عليه، وهي النسخةُ البولاقيةُ المطبوعةُ سنة ١٣٠١ وقد صُوِّرت حديثاً، وقصدتُ بذلك أن أُسَهِّلَ على طلابِ العلم الرجوعَ إلى شرحٍ وافٍ مُوَسَّعٍ للحديث، فإنَّ هذا الكتابَ ــ أعني «فتح الباري» يُعَدُّ بحقٍ قاموساً للسُّنَّة النبوية، يجدُ فيه الباحثُ طَلِبَتَهُ، ويُشبع نَهَمَه، وثمةَ فوائدُ أُخرى نفيسة يجدُها القارىءُ منثورةً في التعليقات، التقطتُها من مصادرَ أُخرى.

٥ ــ ولا بدَّ لي من تسجيلِ بعضِ المؤاخذاتِ التي وقفتُ عليها أثناءَ تحقيقي للكتاب:

١ ــ أورد المؤلفُ الحديثَ (٣٧٠) والحديثَ (٦٠٥) والحديثَ (١٦٥٩)، فقال في الأول: وروى البخاريُّ قوله: «الأرواح . . . . » من روايةِ عائشة، وقال في الثاني: «وعن أنس قال: إن كانت . . . . » رواه البخاريُّ، وقال في الثالث: وعن أبي بردة قال: وَجِعَ أبو موسى. . » متفقٌ عليه. وصنيعُهُ هذا يُوهِمُ أَنَّ الأحاديثَ الثلاثَةَ عند البخاري موصولةٌ؛ وليست كذلك، فإنَّه أخرجَها مُعَلَّقَةً، فكان ينبغي تقييدُها بذلك، لأنَّ الأحاديثَ المُعَلَّقَةَ في البخاري ليست في مرتبةِ الموصولةِ فيه، والمؤلفُ رحمه اللّٰهُ قد ذَكَرَ الفرقَ بينهما في «تقريبه» ص ٣٩.

٢ ــ يقولُ الإمامُ النوويُّ في بعض الأحاديثِ التي لم تَرِدْ إلا عن صحابي واحدٍ: رواهُ فلانٌ وفلان

بأسانيدَ صحيحه. كما في الحديث (٨٣) و(٢٠٢) و(٤٧٤) و(٨١١) و(٨٢٢) و(٨٩٠)، فيُتَوَهَّمُ أنَّ للحديث طرقاً عن ذلك الصحابي، والأمرُ بخلافِ ما قال، فإنَّها لا تُعْرَفُ إلا من طريقٍ واحد، وهو مما انفردَ به، ولم يُتَابعْ عليه، وقد نبَّه على صنيعِهِ هذا الحافظُ ابنُ حجر في «أمالي الأذكار» فيما نقلَهُ عنه ابنُ علاَّن في «الفتوحات الربَّانية» فقد ذكر النوويُّ رحمه الله حديثَ ابنِ عمر: «اللهم إني أسألك العافيةَ في الدنيا والآخرة» في «الأذكار» ص ٦٦، فقال: وروينا بالأسانيد الصحيحةِ في سُنن أبي داود والنَّسَائي وابنِ ماجه، وذكر أيضاً حديثَ ابنِ عياش: «مَنْ قال إذا أصبح: لا إله إلا الله وحده لا شريك له....» وقال: ورَوينا في سُنن أبي داود وابن ماجه بأسانيدَ جيدة. فقال الحافظُ في الحديث الأول: وقولُ الشيخ: «بأسانيدَ صحيحة»: يُوهِمُ أن له طرقاً عن ابنِ عمر وليس كذلك، وقال في الثاني: وفي قولِ الشيخ: «بأسانيدَ صحيحة» نظرٌ، فليسَ له عند أبي داود وابن ماجه إلا بسندِ حمَّادٍ إلى منتهاه.

٣ ـ ذكر المؤلفُ عقبَ حديثِ عمرو بنِ العاص رقم (٩٤٧): إذا دفنتُموني فأقيموا حول قبري.... ما نصُّه: قال الشافعيُّ رحمه الله: ويستحبُّ أن يُقرأَ عنده شيءٌ من القرآن، وإن ختموا القرآنَ عنده كان حسناً. وفي ثبوتِ ذلك عن الشافعيِّ نظر، فإنَّه لا يعرفُ ذلك عنه، وربَّما يكون المؤلفُ قد وهم في نسبةِ ذلك إليه، وأنَّ صواب العبارة ـ كما ذكر هو في «المجموع» ٥/ ٢٩٤ ـ: ويستحبُّ أن يمكُثَ على القبر بعد الدفن ساعةً يدعو للميت، ويستغفر له، نصَّ عليه الشافعيُّ، واتفقَ عليه الأصحابُ قالوا: ويستحبُّ أن يُقرأَ عنده شيءٌ من القرآن، وإنْ ختموا القرآن كان أفضل. فهذا النصُّ صريحٌ في أنَّ استحبابَ قراءة القرآن عند القبر هو قولُ الأصحاب، وليس قولَ الشافعي.

وأسألُ المولى جلَّت قدرتُه أن ينفعَنا جميعاً بما فيه من توجيهاتِ الرسولِ الكريم ﷺ أحسنَ انتفاع، وأن يُعينَنا على القيامِ بخدمةِ السُّنَّةِ النبوية المطهرة، ويُمدَّنا بحولِه وقوَّته، فهو وحدهُ المستعانُ، وله الحمدُ والمنة، ومنه الجزاءُ والثوابُ، وإليه المرجعُ والمآب.

٢٧/ ٧/ ١٤٠١ هـ

٣٠/ ٥/ ١٩٨١ م

شعيب الأرنؤوط

obeikandl.com

ترجمة المؤلف

مولده ونشأته:

هو يحيى بنُ شرف بن مُرّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حِزام أبو زكريا النووي الدمشقي. ونوىٰ من أرضِ حوران، من أعمالِ دمشق، وكان جدُّه الأعلى حزام، نزلها على عادةِ العرب، فأقامَ بها، ورزقه اللَّهُ تعالى ذريةً كثيرة.

وُلدَ سنة (٦٣١ هـ) في نوى، وتولَّى والدُهُ الصالح رعايتَه وتأديبَه، ونشَّأهُ تنشئةً طيبةً، فحضَّهُ منذ الصغر على طَلَبِ العلم، لِمَا لاحظَ فيه من مخايلِ النَّجابَةِ والذكاء، والاستعدادِ الفطري.

قال الشيخُ ياسينُ بنُ يوسف المراكشي: رأيتُ الشيخَ وهوابنُ عشرِ سنين بنوىٰ، والصبيانُ يُكرِهُونه على اللَّعِبِ معهم، وهو يهرُبُ منهم، ويبكي لإكراهِهم، ويقرأُ القرآنَ في تلكَ الحالِ، فوقعَ في قلبي محبَّتُه، وكان قد جعلهُ أبوه في دكانٍ، فجعلَ لا يشتغلُ بالبيعِ والشراءِ عن القرآن، فأتيتُ مُعلِّمه، فوصَّيْتُه به، وقلتُ له: إنَّه يُرجى أَنْ يكونَ أعلمَ أهلِ زمانه وأزهدَهم، وينتفعَ الناسُ به، فقال لي: أَمُنَجِّمٌ أنت؟ فقلتُ: لا، وإنما أنطقني اللَّهُ بذلك، فذُكِرَ ذلك لوالده، فحرصَ عليه إلى أن ختَمَ القرآنَ، وقد ناهزَ الحلم.

ولما كانت بيئتُه في نوى لا تشبعُ نَهَمَهُ العلمي، فقد قدِمَ به والدُه إلى دمشق سنة ٦٤٩ هـ، وكان عمرُه تسعَ عشرة سنة. وكانت دمشق إذ ذاك موئلَ العلماء، ومنهلَ الفضلاء، ومهوىٰ أفئدةِ طُلاَّبِ العلم، وكان فيها من المدارسِ التي يُدَرَّسُ فيها مختلفُ أنواعِ العلم ما يزيدُ على ثلاث مئة مدرسة.

ومنذ أَنْ حطَّ رحلَه فيها التقى بالشيخِ عبدِ الكافي بنِ عبد الملك الرَّبَعي، (المتوفى سنة ٦٨٩ هـ) وأطلعه على دخيلةِ نفسِه، وما ينتويه مِنْ طَلَبِ العلم، فأخذَه، وتوجَّه به إلى حلقةِ العالمِ الجليلِ الشيخِ عبدِ الرحمن بنِ إبراهيم بن الفركاح (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ) فقرأَ عليه دروساً، وبقيَ مُلازِمَهُ مدةً، ثم إنَّه التمسَ من شيخه هذا مكاناً يأوي إليه، ويسكُنُ فيه، فدَلَّهُ على شيخِ المدرسةِ الرواحية الإمامِ الفقيهِ كمالِ الدين إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي، فتوجَّهَ إليه، ولازمَه، وأخذَ عنه، وسكنَ المدرسة الرواحية(١)، وقد ذكر المؤلفُ رحمه الله أنَّه بقي نحوَ سنتين لا يضعُ جنبَه على الأرض، ويتبلغُ بشيءٍ من

(١) كانت هذه المدرسة لصيقة الجامع الأموي من جهة بابه الشرقي، وبانيها هو زكي الدين أبو =

القوتِ يسيرِ، وحفظَ «التنبيه» في نحو أربعةِ أشهر ونصف، ثم حَفِظَ ربع العباداتِ من «المُهَذَّب» في باقي السنة، وهو يشرحُ ويُصحِّحُ على شيخه الكمالِ المغربي، وقد أُعجبَ به شيخُه أيَّما إعجاب لما رأىٰ من دَأْبِه وحرصِهِ وانصرافِهِ إلى طلب العلم، فأحبَّه محبةً شديدةً، وجعلَهُ مُعيدَ الدرس في حلقته لأكثر الجماعة.

شيوخه:

أمَّا شيوخُه الذين تلقَّى عنهم، وسمعَ منهم خلالَ إقامَتِهِ في دمشق، فقد كانوا من خِيرةِ علماءِ عصرِهم، ومِمَّن بَرَعُوا في مُختلفِ العلوم وأصنافِ المعارفِ، كالفقهِ، والحديثِ، وعلمِ الأُصول، وعلمِ العربية، وغيرِ ذلك من الاختصاصات، قارنين إلى ذلك سيرةً حميدةً، وأخلاقاً نبيلةً، كان لها أوضحُ الأثر فيمن أخَذَ عنهم.

فقد أخذ الفقهَ قراءةً وتصحيحاً وسماعاً وشرحاً وتعليقاً عن جماعات:

١ ــ الشيخُ الإمامُ المتَّفَقُ على علمهِ وزهدهِ وورعهِ وكثرةِ عبادتهِ وعِظَمِ فَضْلِهِ، وتميُّزِه في ذلك على أَشكاله، أبو إبراهيم إسحاقُ بنُ أحمد بن عثمان المغربي، ثم المقدسي، المتوفى سنة ٦٥٠ هـ.

٢ ــ أبو محمد عبدُ الرحمن بنُ نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي، ثم الدمشقي، الإمامُ العارفُ الزاهدُ العابدُ الوَرِعُ المُتقِنُ، مفتي دمشق في عصره، المتوفَّى سنة ٦٥٤ هـ.

٣ ــ أبو حفص عمرُ بنُ أسعد بن أبي غالب الرَّبَعيُّ الإرْبِلي، معيدُ الباذرائية.

٤ ــ أبو الحسن سَلاَّرُ بنُ الحسنِ الإربلي، ثم الحلبي، ثم الدمشقي، المجمعُ على إمامتِهِ وجَلاَلَتِه وتقدُّمِهِ في المذهب الشافعي على أهل عصره، والمرجوعُ إليه في حلِّ مشكلاته، المتوفى سنة ٦٧٠ هـ.

وأخذ الحديثَ عن:

١ ــ الحافظ المتقن المحقق الزاهد الورع إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي، ثم المصري، ثم الدمشقي، المتوفَّىٰ سنة ٦٦٨ هـ، وقد لازَمهُ نحو عشر سنين.

= القاسم التاجر المعروف بابن رواحة المتوفى سنة ٦٢٢ هـ. «انظر ترجمته في الشذرات» وكان يدرس فيها نخبة ممتازة من أهل العلم والفضل، كابن الصلاح، وبهاء الدين السبكي، وولي الدين السبكي، والكمال بن الزملكاني، وصفي الدين الأرموي، وشمس الدين المقدسي. انظر «الدارس» للنعيمي ص ١، ٢١، ٣٢، ٣٩، ١٣٠، ١٣٥، ٢٦٨.

٢ ــ أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ أبي حفص عمر بن مضر الواسطي، سمع منه جميع «صحيح مسلم»، ووصَفه بقوله: الشيخ الأمين العدل الرضي.

٣ ــ الشيخ المُحدِّثُ الحافظُ المتقن زينُ الدين أبو البقاء خالدُ بنُ يوسف ابن سعد النابُلُسي، المتوفى سنة ٦٦٣ هـ.

٤ ــ شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري، الحموي، الشافعي، المتوفى سنة ٦٦٢ هـ.

٥ ــ أبو الفرج عبدُ الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة المقدسيُّ، المتوفَّى سنة ٦٨٢ هـ، وهو من أَجَلِّ شيوخه.

٦ ــ قاضي القضاة عمادُ الدين أبو الفضائل عبدُ الكريم بنُ عبد الصمد بن محمد الحرستاني، خطيبُ دمشق، المتوفى سنة ٦٦٢ هـ.

٧ ــ كبيرُ المحدثين ومُسنِدُهم الإمامُ تقيُّ الدين أبو محمد إسماعيلُ بنُ أبي إسحاق إبراهيم بن أبي اليَسَر التنوخي، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ.

٨ ــ الإمامُ المحدث الكبير الضياءُ بنُ تمَّام الحنفي.

٩ ــ المفتي جمالُ الدين عبدُ الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري، ثم الدمشقي، الحنبلي، المتوفى سنة ٦٦١ هـ.

١٠ ــ مُسْنِدُ الوقت زينُ الدين أبو العباس أحمدُ بنُ عبد الدائم بن نعمة المقدسي، النابُلُسي، المتوفَّى سنة ٦٦٨ هـ.

وله شيوخٌ آخرون قرأ عليهم علمَ الأصولِ والنحوِ واللغةِ وغيرَ ذلك من العلوم.

منهم القاضي أبو الفتح عمرُ بنُ بُنْدَار بن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي، قرأ عليه «المنتخب» للفخرِ الرازيِّ، وقطعةً من «المستصفى» للغزالي.

ومنهم أبو العباس أحمدُ بنُ سالم المصريُّ النحويُّ اللغوي، المتوفى سنة ٦٦٤ هـ، قرأ عليه «إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت، وكتاباً في التصريف، وغير ذلك.

ومنهم العلامةُ جمالُ الدين محمدُ بنُ عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، إمامُ النحاة، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ.

ومنهم الحافظُ المؤرخُ شهابُ الدين أبو محمد عبدُ الرحمن بنُ إسماعيل المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ.

سماعاته: كانت مسموعاتُه على المشايخ كتبَ السُّنَّةِ التالية:

الجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، وسنن النسائي، وموطَّأ مالك، ومُسْنَد الشافعي، ومُسْنَد أحمد، ومسند الدارمي، ومسند أبي يعلى، وصحيح أبي عَوَانة، وسُنَن البيهقي، وشرح السُّنَّة للبَغَوي، وعمل اليوم والليلة لابن السُّنِّي، والجامع لآداب الراوي والسامع للخطيب البغدادي، والأنساب للزبير بن بكار، وأجزاء كثيرة غيرها.

المدارس التي درَّسَ فيها:

وليَ رحمه الله مشيخةَ دارِ الحديث الأشرفية بعد الإمامِ أبي شامة سنة (٦٦٥ هـ) إلى أن مات، وهي في دمشق جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية، بناها الملكُ الأشرفُ من ملوك الدولةِ الأيُّوبية (٥٧٩ ــ ٦٣٥ هـ) وقد نَشر بها علماً جماً، وأفادَ الطلبةَ، وحدَّثَ بالصحيحين سماعاً وبحثاً، وبقطعةٍ من سُنَن أبي داود، وصفوةِ التصوف، والحجة على تارك المحجة، وشرح معاني الآثار للطحاوي. وكان ينوبُ بالمدرسة الركنية التي بناها ركنُ الدين منكورس عن القاضي شمسِ الدين بنِ خَلِّكان مؤلف «وفيات الأعيان». وقال القطبُ اليونينيُّ: إنَّ الشيخ باشَر الإقباليةَ والفلكية[1].

صفاته العلمية والخلقية:

لم يكد الإمامُ النوويُّ يستقِرُّ في المدرسةِ الرواحية حتى أقبلَ على طلبِ العلم بِنَهَمٍ وشغف، وجدٍّ واستعدادٍ، وهمةٍ لا تعرِفُ الكلل والملل، فكان يقرأُ كُلَّ يومٍ أحدَ عشرَ درساً على العلماء شرحاً وتصحيحاً: درسين في «الوسيط» للغزالي، وثالثاً في «المهذب» للشيرازي، ودرساً في «الجمع بين الصحيحين» للحُميدي، وخامساً في «صحيح مسلم»، ودرساً في «إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت، ودرساً في «اللمع» لابن جِنِّي، ودرساً في أصول الفقه في «اللُّمَع» للشيرازي، و«المنتخب» للفخر الرازي، ودرساً في أسماءِ الرجالِ، ودرساً في أُصولِ الدين، وكان يُعَلِّقُ جميعَ ما يتعلَّقُ بها من شرحِ مُشْكِلٍ، وإيضاحِ عبارةٍ، وضبطِ لغةٍ.

وما كان ينامُ من الليل إلا أَقَلَّهُ، وإذا غلبه النومُ استندَ إلى الكتُب لحظةً، ثم انتبه، وضُرِبَ به المثلُ في إكبابِه على طلبِ العلم ليلاً ونهاراً، وهجرِهِ النومَ إلا عن غَلَبَة، وضبطِ أوقاتِه بلزوم الدرسِ أو الكتابةِ أو المطالعةِ، أو التردُّدِ على الشيوخ، حتى إِنَّه إذا مشىٰ في الطريق كان يشتغِلُ في تكرارِ ما يحفَظُ، أو

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٣/ ٢٨٣، ٢٨٤.

يُطالعُ ما يحتاجُ إلى مطالعةٍ، واستمرَّ على ذلك ستَّ سنين.

وكان قَوِيَّ المدرك، حاضِرَ البديهة، تَنْثَالُ عليه المعاني انثيالاً في وقتِ الحاجة إليها، يتعمَّقُ في المسائلِ العلمية، ولا يكتفي بدراسةِ ظواهرِها، ولا يتقلَّدُ قولَ الغَيرِ فيها إلا بعدَ التحقُّق من صحَّةِ دليله، وجودة مَنْزِعِهِ.

وكان رحمه الله يتمتَّعُ بحافظةٍ قوية، مستوعبةٍ، أتاحتْ له السيطرة الفكريةَ على ما يقرأُ، بحيث يربِطُ أقصاهُ بأدناهُ، وأَولَه بآخرِه، وأجزاءَه بعضَها ببعض.

وكان رحمه الله تتمثَّلُ فيه الآدابُ التي ذكرها في كتابه «المجموع» ١/ ٤٦ ـ ٤٨ لمن ينصِبُ نفسه للتعليم وهي:

١ ـ أن يقصد بتعليمه وجه الله، ولا يقصِد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال أو جاه، أو شهرة أو سُمعة، أو تميزٍ عن الأشباه، أو تكثرٍ بالمشتغلين عليه، أو المختلفين إليه. ولا يشين علمَه وتعليمَه بشيء من الطمع في رفق تحصل له من مشتغل عليه مِن خدمة أو مال أو نحوهما، وإن قل، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغالُه عليه لما أهداها له.

٢ ـ أن يتخلَّق بالمحاسن التي ورد الشرعُ بها، وحثَّ عليها، والخلالِ الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهد في الدنيا، والتقلل منها، وعدم المبالاة بفواتها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، والحلم والصبر، وملازمة الورع والخشوع والسكينة، والوقار والتواضع، والإقلال من المزح، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية.

٣ ـ الحذر من الحسدِ والرياء والإعجابِ، واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات.

وطريقه في نفي الحسد أن يَعْلَمَ أنَّ حِكمةَ الله تعالى اقتضتْ جعلَ هذا الفضل في هذا الإنسان، فلا يعترضُ ولا يكره ما اقتضته الحكمة.

وطريقهُ في نفي الرياء أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة، فلا يتشاغلُ بمراعاتهم، فيتعِب نفسه، ويضر دينه، ويحبِط عمله، ويرتكب سخط الله، ويفوته رضاه.

وطريقه في نفي العجب أنْ يعلم أَنَّ العلم فضلٌ من الله تعالى ومعه عارية، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكُلُّ شيء عنده بأجلٍ مسمى، فينبغي ألا يُعْجَبَ بشيءٍ لم يخترعه، وليس مالكاً له، ولا هو على يقين من دوامه.

وطريقُه في نفي الاحتقار التأدُّبُ بما أدَّبنا اللَّهُ تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ

بِمَنِ اتَّقَى﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾ فربّما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى وأطهرَ قلباً، وأخلصَ نيةً، وأزكى عملاً.

٤ ــ دوام مراقبته لله تعالى في علانيته وسِرِّه، محافظاً على قراءة القرآن والأذكار والدعوات، ونوافلِ الصلواتِ والصومِ وغيرها، مُعَوِّلاً على اللَّهِ في كُلِّ أمره، معتمِداً عليه، مُفَوِّضاً في كل الأحوال أمرَه إليه.

٥ ــ أن يستمرَّ مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءةً وإقراءً، ومطالعةً وتعليقاً ومباحثة ومذاكرة وتصنيفاً، ولا يستنكِفَ من التعلُّم ممن هو دونه في سن، أو نسب، أو دينٍ، أو في علم آخر، بل يحرِصُ على الفائدة ممن كانت عنده، وإن كان دونه في جميع هذا. وينبغي ألا يمنعه ارتفاعُ منصبه وشهرته من استفادة مالا يعرِفُه، فقد كان كثيرٌ من السلف يستفيدونَ من تلامذتهم ما ليس عندهم.

٦ ــ ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهَّلَ له، فبه يطَّلِعُ على حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه، لأنَّه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعةِ والتحقيقِ والمراجعةِ والاطلاع على مختلِف كلام الأئمة ومتفقِه، وواضِحِهِ مِن مُشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله مِن ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يرتفعُ عن الجمود على محض التقليد، ويبلُغ منزلة الأئمة المجتهدين أو يُقاربهم.. وليحذر كُلَّ الحذَرِ أن يشرَعَ في تصنيف ما لم يتأهَّلْ له، فإن ذلك يضرُّه في دينه وعلمه وعرضه، ولا يخرج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره. وليُراع في تصنيفه وضوحَ العبارة، والإيجازَ غيرَ المخل، وليتطرَّق إلى المواضيع التي لم يُسَبق إليها، ويَعُمُّ الانتفاعُ بها، وتدعو الحاجةُ إليها.

٧ ــ وينبغي له أن يُحرِّضَ طلابه على الاشتغال في كُلِّ وقت، ويُطالبهم في حفظ ما يلزمُ حفظه، ويُثير أذهانَهم بطرحِ الأسئلة المهمَّةِ عليهم، فيُثني على المجتهد منهم والنابغة فيهم ترغيباً له، وشحذاً لهمَمِ الآخرين، ويوجِّه إلى المقصِّر منهم اللومَ غير المنفر ويبسطُ له ما أشكل عليه ليتَّضِحَ له، وعليه أن يُنصِفَهم في البحث، فيعترفَ بفائدة يقولُها بعضُهم وإن كان صغيراً، ولا يحسد أحداً منهم لوفرة تحصيله، وحدَّة ذهنِه، وحضورِ بديهته، فإن الحسدَ حرامٌ لغير طُلاَّبه، وهنا أشد، فإنه بمنزلة الولد، وفضيلته يعودُ إلى معلمه منها نصيبٌ وافر، فإنه مربيه، وله في تعليمه وتخريجه في الآخرة الثوابُ الجزيلُ، وفي الدنيا الدعاءُ المستمر، والثناءُ الجميل.

٨ ــ ومن أهم ما يُؤمَرُ به ألا يتأذَّى مِمَّنْ يقرأُ عليه إذا قرأَ على غيره، وهذه مصيبةٌ يُبْتلىٰ بها جهلةُ المعلمين لغَبَاوتهم، وفسادِ نيَّتهم، وهو من الدلائلِ الصريحةِ على عدم إرادتِهم بالتعليم وجهَ الله.

ويعد الإمام النووي ممن تقلد مذهب الشافعي وارتضاه، وقيد نفسه بالتخريج على أصوله، وهو

من كبار الحافظين للمذهب، العارفين بأدلته، القائمين بتقريرها، وهو محرره، ومهذبه، ومنقحه، ومرتبه.

وربما نلمح عنده استقلالاً فكرياً في بعض المسائل التي يعرض لها، فإنه ينتهي فيها إلى رأي يخالف فيه إمامه، أو يرجح قولاً من أقواله، لأنه اعتضد بالحديث الصحيح. فقد جاء في شرحه لصحيح مسلم ٨/ ٢٥ وهو يتحدث عن مسألة قضاء الصوم عن الميت: وللشافعي في المسألة قولان مشهوران، أشهرهما: لا يصام عنه، ولا يصح عن ميت صوم أصلاً. والثاني: يستحب لوليه أن يصوم عنه، ويصح صومه عنه، ويبرأ به الميت. وهذا القول هو الصحيح المختار الذي نعتقده، وهو الذي صححه محققو أصحابنا، الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة.

وقد يعرض أقاويل العلماء في المسألة بما فيهم الإمام الشافعي، ويقول: ولكن الحديث كذا، واتباع الحديث أولى.

وحين أورد في «المجموع» رأي ابن الصلاح في الأخذ بالحديث الصحيح إذا خالف قول الشافعي، علق عليه بقوله: وهذا الذي قاله متعين حسن.

تلك هي أهم خصائصه العلمية.

أما الجانبُ الخُلُقيُّ من شخصيته، فقد كان رحمه اللَّهُ على جانبٍ عظيم من التقوىٰ والإنابة، فهو كما سَبَقَ أَنْ أشرنا منذ نعومةِ أظفاره كان يَسْتَشْعِرُ خشيةَ الله، فيَنفِرُ عن اللهو، ويَنصرِفُ عن اللغو، ويملأُ فراغَه بقراءةِ القرآن والأعمالِ الصالحة التي تُقَرِّبُه إلى الله.

وكان رأساً في الزهد، قدوةً في الورعِ، يتقلَّلُ من الدنيا، ويُعرِضُ عن مفاتِنها ومتعِها، ولا يتناولُ منها إلا ما يُقيم أَوَدَهُ، ويُعِينُه على القيامِ فيما هو آخذٌ بسبيلِه.

قال الإمامُ الذهبيُّ في «العبر» ٥/ ٣١٣: ولي دارَ الحديث، وكان لا يتناولُ من معلومِها شيئاً، بل يتقنَّعُ بالقليل مما يبعثُ به إليه أبوه، وكان لا يأخُذُ مِنْ أحدٍ شيئاً، ولا يقبَلُ إلا مِمَّن تحقَّقَ دينَه ومعرِفَتَه، ولا له بهِ علاقةٌ من إقراءٍ وانتفاعٍ به.

وقال في حقِّهِ أيضاً: كان عديمَ الميرة والرفاهيةِ والتنعُّم، مع التقوىٰ والقناعةِ والورعِ والمراقبةِ لله تعالى في السِّرِّ والعلانيةِ، وتركِ رُعُوناتِ النَّفْسِ، من ثيابٍ حسنةٍ، ومَأْكَلٍ طيب، وتَجَمُّلٍ في هيئة، بل طعامُهُ جلفُ الخُبْزِ بأَيْسَرِ إدام، ولباسُهُ ثوبُ خام، وسختيانةٌ لطيفة.

هذا ما كان يأخذُ به نفسه، ولكنَّهُ في باب الفتيا كان ينهَجُ منهجَ القصدِ والاعتدال فقد علَّقَ على حديثِ عائشةَ المُخَرَّج في مسلمٍ (١٤٧٤) (٢١): «كان رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ الحلواءَ والعسلَ»، فقال:

فيه جوازُ أكلِ لذيذِ الأطعمةِ والطيبات من الرِّزق، وأنَّ ذلك لا يُنافي الزهدَ والمراقبةَ، لا سيَّما إذا حصلَ اتفاقاً.

وكان رحمه الله يُسدي النصحَ للعُظَماء والكبارِ بأسلوبٍ تلمحُ فيه عزَّةَ المؤمن، ونزاهةَ القصد، وكمالَ الشَّفَقَة للمنصوح، وله في ذلك مواقفُ رائعةٌ مُدَوَّنَةٌ في الكُتُب التي أُلِّفت في مناقبه تستوجِبُ الإكبارَ والإعجابَ، وتصلحُ أنْ تكون مثلاً أعلىٰ للاحتذاء.

وكان رحمه الله يشتدُّ في الإنكارِ على مَنْ يبتدعُ في الإسلام ما لا يرضاهُ اللَّهُ ورسولهُ، ولا يُحابي في ذلك أحداً كائناً مَنْ كان، رائدُهُ الإخلاصُ في طلبِ الحقيقةِ، فقد قال في «الأذكار» ص ١٣٦: اعلمْ أنَّ الصوابَ المختارَ ما كانَ عليه السلفُ رضي الله عنهم السكوتُ في حالِ السيرِ مع الجِنازة، فلا يرفعُ صوتاً بقراءةٍ ولا ذكرٍ ولا غيرِ ذلك، والحكمةُ فيه ظاهرةٌ، وهي أنَّهُ أسكَنُ لخاطرِه، وأجمعُ لفكرِه فيما يتعلَّقُ بالجِنازة، وهو المطلوبُ في هذا الحالِ، هذا هو الحقُّ، ولا تغتَرَّنَّ بكثرةِ مَنْ يُخالِفُه، فقد قال أبو علي الفُضَيلُ بنُ عياض رضي الله عنه ما معناه: الزم طُرُقَ الهُدىٰ، ولا يضرُّكَ قلةُ السالكين، وإياكَ وطرقَ الضَّلالة، ولا تَغْتَرَّ بكثرة الهالكين. وأمَّا ما يفعلُه الجهلةُ من القراءةِ على الجِنازة بدمشق وغيرِها من القراءةِ بالتمطيطِ وإخراجِ الكلامِ عن موضوعِه، فحرامٌ بإجماعِ العلماء، وقد أوضحتُ قُبحَهُ، وغلظَ تحريمه، وفسقَ مَنْ تمكَّن مِنْ إنكاره فلم يُنكِرْهُ في كتاب «آداب القراء» واللَّهُ المستعانُ، وبه التوفيق.

وقد قال المحدثُ أبو العباس بنُ فرح: كان الشيخُ محيي الدين قد صارَ إليه ثلاثُ مراتب، كلُّ مرتبةٍ منها لو كانت لشخصٍ، شُدَّتْ إليه آباطُ الإبل من أقطار الأرض، المرتبةُ الأولى: العلمُ والقيامُ بوظائفه، والثانيةُ: الزُّهدُ في الدنيا وجميعِ أنواعها، الثالثةُ: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

مؤلفاته:

وقد ألَّف النوويُّ رحمه اللَّهُ كُتُباً كثيرةً في عُلُومٍ شَتّى، في الفقهِ، والحديثِ والمصطلح، والتراجم، وكلُّها تتميَّزُ بالتحقيقِ والإتقانِ، والاستيعابِ الشامِلِ، والاستدلالِ الكامِلِ، والأسلوبِ السهلِ الواضح مما يندرُ أَنْ يجدَهُ القارىءُ عندَ غيرِهِ من علماءِ عصره، حتى إنَّ ابنَ مالك شيخَ النحاةِ كان يشتهي أَنْ يحفظَ أحدَ كُتُبه لعُذُوبةِ ألفاظه، ونَصَاعَةِ بيانِه، إلا أنَّه عاقَهُ عن ذلك كبرُ سِنِّه، وهذا ما حدا بطَلَبَةِ العلم مِن مختلفِ البلادِ الإسلامية أن يُقبِلُوا على اقتناءِ تصانيفهِ، وتدارُسِها، والانتفاعِ بما فيها.

تآليفه في الفقه:

١ ــ روضة الطالبين:

وهو من الكتبِ الجامعةِ المعتمدةِ في المذهب الشافعي، اختصره من «الشرح الكبير» للإمامِ الرافعي، وزاد فيه تصحيحاتٍ ودقائقَ واختياراتٍ حسانٍ، ابتدأ تأليفَه في شهر رمضان سنة ٦٦٦ هـ،

وفَرَغَ منه في شهر ربيع الأول سنة ٦٦٩ هـ، وقد طُبِعَ في دمشق في اثني عشر مجلداً، وكان من فضلِ اللَّهِ عليَّ وعلى زميلي الشيخِ عبدِ القادر الأرنؤوط أَنْ تولَّينا تحقيقَه، وضبطَه، وتفصيلَه وترقيمَه، ومقابلَتُه على ثلاثةِ أصولِ خطية جيدة، اثنتان منها في دار الكُتُب الظاهريَّة بدمشق.

٢ ــ المنهاج:

وهو كتابٌ لطيفُ الحجم، يقعُ في مجلدٍ واحدٍ، يكثُرُ تداولُهُ بين العلماء والطَّلَبَة، وهو عُمدَتُهم في معرفةِ المذهب، اختصرهُ من كتاب «المُحرَّر» للرافعي، وزاد عليه تصحيحاتٍ واختياراتٍ، وقد فَرَغَ من تأليفه في رمضان سنة ٦٦٩ هـ. وقد طُبع عدة طبعات، وعندنا منه نسخةٌ خطيةٌ نفيسة، على هوامِشِها تعليقاتٌ كثيرة، بخطٍ مُغاير للأصل.

٣ ــ الإيضاح في المناسك:

وهو كتابٌ يشتملُ على كُلِّ ما يحتاجُه الحاجُّ مع فوائدَ كثيرةٍ قيمةٍ، وقد شرحه عليُّ بنُ عبد الله بن أحمد الحسني، المتوفَّى سنة ٩١١ هـ، وعلَّقَ عليه حاشيةً نفيسةً الفقيهُ ابنُ حجر المكيُّ الهيثميُّ المتوفى سنة ٩٧٤ هـ.

٤ ــ المجموع:

شرحَ فيه «المُهَذَّب» لشيخِ الشافعيةِ في عصره أبي إسحاق الشيرازي، وقد وصلَ فيه إلى أثناءِ كتابِ الربا، فعاجَلَتْهُ المنيةُ دون إكماله، طُبع في تسعِ مجلداتٍ ضِخام، وقد وصفه الحافظُ ابنُ كثير في «طبقات الشافعية» له، فقال: سلكَ فيه طريقةً وسطةً حسنةً مهذبةً سهلةً جامعةً لأشتاتِ الفضائلِ، وعيونِ المسائل، ومجامعِ الأوائلِ، ومذاهبِ العلماء، ومفرداتِ الفُقهاءِ، وتحريرِ الألفاظ، ومسالكِ الأئمة الحفاظ، وبيانِ صحةِ الحديثِ من سقَمِه، ومشهورِه من عكسه، وبالجملةِ فهو كتابٌ ما رأيتُ على منواله لأحدٍ من المتقدمين، ولا حذا على مثالِه مُتَأَخِّرٌ من المصنفين.

ونصيحتي لطالب العلم المُتَمكن أَنْ يُكثِرَ من المطالعة فيه، فإنَّه يُنَمِّي مداركَه، ويوسعُ أفقَه، ويوقفُه على اختلافِ العلماء ومنازِعِهم في الاستدلال، وبذلك يتجاوَزُ مرحلة التقليدِ إلى الاتِّباع.

٥ ــ الفتاوى المسماة بالمسائل المنثورة:

وهي من جمعِ صاحبِه المُلازِمِ له علاءِ الدين بن العطَّار، وفيها علمٌ جمٌّ، وآراء سديدة.

تآليفه في الحديث والمصطلح:

١ ــ شرح صحيح مسلم:

وهو شرحٌ نفيسٌ، يتداوله العلماءُ، وينقلونَ عنه، ويُفيدون منه، ولا سيَّما الحافظ ابن حجر في

«فتح الباري»، ضمَّنه كما يقولُ في مقدمته: جملاً من علومهِ الزاهراتِ، من أحكامِ الأصولِ والفروعِ، والآدابِ والإشاراتِ، والزهديات، وبيانِ نفائسَ من أصولِ القواعدِ الشرعيات، وإيضاحِ معاني الألفاظ اللغوية، وأسماءِ الرجال، وضبطِ المُشكلات، وبيانِ أسماءِ ذوي الكُنى، وأسماءِ آباءِ الأبناء والمُبْهَمات، والتنبيهِ على لطيفةٍ من حالِ بعضِ الرواة وغيرهم من المذكورين في بعضِ الأوقاتِ، واستخراجِ لطائفَ من خفيَّاتِ علمِ الحديث من المتونِ والأسانيدِ المستفادات، وضبطِ جملٍ من الأسماءِ المُؤتلفات والمختلفات، والجمعِ بينَ الأحاديثِ التي تختلفُ ظاهراً، ويظنُّ بعضُ من لا يحقِّقُ صناعتي الحديث والفقه كونَها متعارضاتٍ، وأُنبِّهُ على ما يحضرني في الحالِ في الحديثِ من المسائلِ العمليات، وأُشيرُ إلى الأدلةِ في كُلِّ ذلك إشارات، إلا في مواطنِ الحاجة إلى البسطِ للضرورات، وأحرصُ في جميعِ ذلك على الإيجازِ وإيضاحِ العبارات. وهو آخرُ ما أَلَّف كما يُتبيَّنُ من الشرح نفسه، فقد جاء فيه ١٢/ ٥٧: وقد أوضحتُ هذا في جزءٍ جمعتُه في قسمةِ الغنائمِ حين دعت الضرورةُ إليه في أول سنةِ أربعٍ وسبعين وستمئة.

٢ ــ رياض الصالحين، وهو كتابُنا هذا، وقد سبق الكلامُ عليه.

٣ ــ الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار:

وهو مثلُ «رياض الصالحين» كثيرُ التداول، واسعُ الانتشار، لا يكادُ يخلو منه بيتُ مسلم، ذكرَ فيه الأحاديثَ الواردةَ في ما ينبغي أَنْ يُقالَ من الأذكارِ والدعواتِ في اليومِ والليلةِ، وفي مختلف المناسبات، وقال: إنَّه أسقطَ الأسانيدَ رغبةً في الاختصار، وذكرَ بدلاً منها ما هو أهمُّ منها، وهو بيانُ صحيحِ الأحاديثِ وحسنِها، وضعيفِها، ومنكرِها، فإنَّه مما يفتقرُ إليه عامَّةُ الناس، وهو أهمُّ ما يجبُ الاعتناءُ به، ثم ضَمَّ إلى ذلك جملاً من النفائسِ من علمِ الحديث، ودقائقِ الفقه، ومُهمَّاتِ القواعد، ورياضاتِ النفوس، والآدابِ التي تتأكدُ معرفتُها على السالكين. وقد طُبع هذا الكتابُ عدة طبعات، وأجودُها الطبعةُ التي صدرت بدمشق بتحقيقِ صديقنا الأستاذ الشيخ عبد القادر الأرنؤوط.

وهذا الكتابُ هامٌّ جداً في نظري، وأُوصي كُلَّ مسلمٍ أن يُداوِمَ على مُطالعته، ويحفظَ ما صحَّ من الأذكارِ المأثورة، والدعواتِ التي تُقالُ في مختلف الأحوال، ويقنعَ بما أُثِرَ عمَّن هو حجةُ الله على الخلق أجمعين، فإنَّه أعلمُ بتقديسِ ربِّه، وبتمجيده، وأخبرُ بصيغةِ الثناءِ عليه من كلِّ مَنْ سواه.

٤ ــ الخلاصة في أحاديث الأحكام:

وموضوعُهُ الأحاديثُ التي يحتجُّ بها الفقهاءُ، ولا سيَّما الشافعيةُ منهم، وقد وصلَ فيه إلى أثناء الزكاة، ولم يُكمِلْهُ، وقد قالوا في وصفه: إنَّه لا يَستغني المحدثُ عنها والفقيه، ولو كَمُلَتْ كانت في بابها عديمةَ النظير. وفي معهدِ المخطوطاتِ نسخةٌ مصورةٌ منه عن دار الكتب (٢٠٩) حديث منسوخة

بقلم محمد بن الحسن بن علي بن عيسى اللخمي عن نسخة الأصل وهي في (١٣٤) ورقة، والإمامُ الزَّيْلَعيُّ الحنفي صاحبُ «نصب الراية» ينقلُ عنه في تصحيح الحديثِ الذي يكون بصدد تخريجه.

٥ ـ الأربعين النووية:

جمعَ فيها أربعينَ حديثاً التزمَ فيها الصحة، وشرحَها شرحاً لطيفاً، وقد طُبِعَ هذا الشرح بعناية منير الدمشقي، و«للأربعين» شروحٌ كثيرةٌ، مِنْ أجودِها «جامع العلوم والحكم» للحافظِ ابنِ رجب الحنبلي، وهو شرحٌ غايةٌ في النفاسة، لأنَّ مؤلفه رحمه اللَّهُ قد امتلأ صدرُهُ بعلومِ السلف وهديِهم، وقد وهبهُ اللَّهُ قدرةً على عرضِها بأسلوبٍ مُيَسَّرٍ، ولفظٍ مشرقٍ، وهو بحاجةٍ إلى أن يُنْشَرَ نشرةً صحيحةً متقنة.

٦ ـ الإرشاد:

في مصطلح الحديث، اختصرهُ من «مقدمة ابن الصلاح» المشهورةِ في علوم الحديث، ثم اختصرهُ بكتابٍ سمَّاه: «التقريب والتيسير في معرفة سنن البشير النذير»، وهو كتابٌ لطيفُ الحجم، جمعَ فيه أُمَّهات فنِّ المصطلح، وبالغَ في اختصارِه بعبارةٍ واضحةٍ من غير إخلال بالمقصود، ليسهُلَ حفظُه على طلبة العلم، وقد شرحَ هذا الكتابَ الإمامُ الحافظُ جلالُ الدين السيوطيُّ بكتابٍ سمَّاه: «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» وهو شرحٌ حافلٌ، ضمَّ كثيراً من نفائسِ علمِ المصطلح.

في التراجم واللغة:

١ ـ تهذيب الأسماء واللغات:

وهو يتألفُ من قسمين: الأولُ يتضمَّنُ تراجمَ الرجال والنساء وغيرهما مِمَّن وردَ لهم ذكرٌ في: مختصر المزني، والمُهَذَّب، والتنبيه، والوسيط، والوجيز، وروضة الطالبين.

والقسم الثاني: شرحَ فيه الألفاظَ الغريبَة الموجودةَ في تلكِ الكتبِ السِّتَّةِ، وضَبَطَها ضبطاً متقناً، ونبَّهَ مع ذلك على كثيرٍ من المعاني اللطيفةِ، والمسائلِ الحقيقيةِ بأوضحِ عبارةٍ، وضبطَ فيه من حدودِ الألفاظ الفقهية ومجامِعِها ما يصعبُ تحقيقُه إلا على النادرِ من أهلِ العناية، كضبط حقيقةِ الهِبَةِ، والهديَّة، والصدقةِ، والفرقِ بينها، وما يتعلَّقُ بالألفاظ الجامعةِ، وعرَّفَ المواضعَ والبلادَ، وحدد أمكنتها، ونبه على ما يشتبه منها.

٢ ـ طبقات الفقهاء:

هو في تراجم العلماء المنتسبينَ إلى الشافعيِّ، اختصره مِن كتاب ابنِ الصلاح، وزاد عليه أسماءَ نبَّه عليها في ذيل كتابه، ومات وهو مُسَوَّدة، فقام بتبييضه الحافظ المزي صاحب «تهذيب الكمال»، ولم يُطبع بعد.

٣ ــ تحرير ألفاظ التنبيه:

وقد جاء في مقدمته بعد أن أبان عن قيمة كتاب «التنبيه»: والنوع الثاني: بيان لغاته، وضبط ألفاظه، وبيان ما ينكر مما لا ينكر، والفصيح من غيره، وقد استخرتُ الله الكريم الرؤوف الرحيم في جمع مختصر أذكر فيه ــ إن شاء الله تعالى ــ اللغاتِ العربيةَ والمُعربة، والألفاظَ المولَّدة، والمقصورةَ والممدودة، وما يجوزُ فيه المذكر والمؤنث، والمجموع والمفرد، والمشتق، وعددَ لغات اللفظة، وأسماء المسمى الواحد المترادِفة، وتعريف الكلمة وبيانَ الألفاظ المشتركة ومعانيها، والفروقَ بينها، كلفظةِ الإحصان، وما اختلف فيه أنه حقيقة أو مجاز كلفظة النكاح، وما يُعرف مفرده، ويُجهل جمعُه، وعكسه، وماله جمع، وماله جموع، وبيانَ جمل ما يتعلق بالهجاء، وما يُكتب بالواو والياء والألف، وما قيل جوازه بوجهين أو بثلاثة كالربا، وأنبه فيه على جمل مِن مهمات قواعد التصريف المتكررة، وأذكر فيه جُملاً من الحدود الفقهية المهمة، كحد المثلي، وحد الغصب ونحوهما، والفرق بين المتشابهات كالهبة والهدية وصدقة التطوع، وكالرشوة والهدية، وبيان ما قد يلحن فيه، وما أنكر على المصنف عنه جواب، وما لا جوابَ عنه، وما غيرُه أولى منه، وما هو صوابٌ وتوهم جماعة أنه غلط، وما يُنكر من جهة نظم الكلام وتداخله، والعام والخاص وعكسه، وبيان جمل مهمة ضبطناها عن نسخة المصنف وهي صوابٌ وفي كثير من النسخ خلافها، وبيان ما أنكر على الفقهاء وليس منكراً، وبيان جمل من صور المسائل المشكلة مما له تعلُّق بالألفاظ، وغير ذلك من النفائس المهمات، كما ستراها في موضعها إن شاء الله تعالى واضحاً. وألتزم فيه المبالغَة في الإيضاح مع الاختصارِ المعتدِل، والضبطِ المُحكم المهذَّب، وقد أضبط ما هو واضح، ولكن قد يخفى على بعض المبتدئين، ومتى ما ذكرتُ فيه لغتان أو لغات قدمتُ الأفصح، ثم الذي يليه، إلا أن أُنبه عليه، وما كان من لغاته ومعانيها غريباً أضيفُه غالباً إلى ناقله، وهذا الكتابُ وإن كان موضوعاً للتنبيه على ما في «التنبيه» فهو شرح لمعظم ألفاظ كتب المذهب وعلى الله اعتمادي».

وله رحمه الله مؤلفات أخرى، منها ما كمل، ومنها ما لم يكمل، لم أنشط لوصفها في هذه المقدمة.

وفـاتــه:

في سنة ست وسبعين وستمئة قفل راجعاً إلى نوى بعد أن أقام في دمشق نحواً من ثمانية وعشرين عاماً، وبعد أن ردَّ الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة شيوخه، فقرأ ودعا وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودعهم، فمرض بنوى، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين من رجب، ودفن

بها، ولما بلغ نعيه إلى دمشق ارتجت هي وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، ورثاه جماعة يبلغون عشرين نفساً بأكثر من ستمئة بيت. رحمه الله.

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ[1]، تَذْكِرَةً لأُولِي الْقُلُوبِ وَالأَبْصَارِ، وَتَبْصِرَةً لِذَوِي الأَلْبَابِ وَالاعْتِبَارِ، الَّذِي أَيْقَظَ مِنْ خَلْقِهِ مَنِ اصْطَفَاهُ فَزَهَّدَهُمْ فِي هٰذِهِ الدَّارِ، وَشَغَلَهُمْ بِمُرَاقَبَتِهِ وَإِدَامَةِ الأَفْكَارِ، وَمُلاَزَمَةِ الاتِّعَا كَارِ، وَوَفَّقَهُمْ لِلدَّأْبِ فِي طَاعَتِهِ، وَالتَّأَهُّبِ لِدَارِ الْقَرَارِ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يُسْخِطُهُ وَيُوجِبُ دَارَ الْبَوَارِ، وَا فظَةِ عَلَى ذٰلِكَ مَعَ تَغَايُرِ الأَحْوَالِ وَالأَطْوَارِ.

أَحْمَدُهُ أَبْلَغَ حَمْدٍ وَأَزْكَاهُ، وَأَشْمَلَه وَأَنْمَاه.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ، الْهَادِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَالدَّاعِي إِلَى دِينٍ قَوِيمٍ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وَآلِ كُلٍّ، وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] وَهٰذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقُوا لِلعِبَادَةِ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ وَالإِعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا بِالزَّهَادَةِ، فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لاَ مَحَلُّ إِخْلادٍ، ومَرْكَبُ عُبُورٍ لا مَنْزِلُ حُبُورٍ، ومَشْرَعُ انْفِصَامٍ لا مَوْطِنُ دَوَامٍ. فَلِهٰذَا كَانَ الأَيْقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادَ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فِيهَا هُم الزُّهَّادَ. قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] والآيات في هٰذا المعنى كَثِيرةٌ. ولَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

إِنَّ لِلَّـــــهِ عِبَـــــاداً فُطَنَـــــا ... طَلَّقُـــوا الـدُّنْيَـا وَخَـافُـوا الْفِتَنَـا

نَظَـــرُوا فِيهَـــا فَلَمَّـــا عَلِمُـــوا ... أَنَّهَـــا لَيْسَـــتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا

جَعَلُـــوهَـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا ... صَـالِـحَ الأَعْمَـالِ فِيهَـا سُفُنَـا

---

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يكوِّرُ الليلَ على النَّهارِ ويكوِّرُ النهارَ على الليلِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وأصله من تكوير العمامة وهو لفُّها وجمعها.

فإذا كَان حالُها ما وصفتُهُ، وحالُنا ومَا خُلِقْنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ؛ فَحَقٌّ عَلَى الْمُكَلَّفِ أَنْ يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ مَذْهَبَ الأخْيَارِ، ويَسْلُكَ مَسْلَكَ أُولِي النُّهى وَالأَبْصارِ، وَيَتَأَهَّبَ لما أَشَرْتُ إِلَيْهِ، وَيَهْتَمَّ بِمَا نَبَّهْتُ عَلَيْهِ. وَأَصْوَبُ طَرِيقٍ لهُ فِي ذٰلِكَ، وَأَرْشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ الْمَسَالِكِ: التَّأَدُّبُ بِمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الأَوَّلِين وَالآخرينَ، وَأَكْرَمِ السَّابِقِينَ وَاللاَّحقِينَ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ وَعَلى سَائِرِ النَّبِيينَ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»(١) وَأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَلَّ عَلى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»(٢) وَأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً»(٣) وَأَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(٤).

فَرَأَيْتُ أَنْ أَجْمَعَ مُخْتَصَراً مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، مُشْتَمِلاً عَلَى مَا يَكُونُ طَرِيقاً لِصَاحِبِهِ إِلَى الآخِرَةِ، وَمُحَصِّلاً لآدَابِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، جَامِعاً لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ آدَابِ السَّالِكِينَ: مِنْ أَحَادِيثَ الزُّهْدِ، وَرِيَاضَاتِ النُّفُوسِ، وَتَهْذِيبِ الأَخْلاَقِ، وَطَهَارَاتِ الْقُلُوبِ وَعِلاَجِهَا، وَصِيَانَةِ الْجَوَارِحِ وَإِزَالَةِ اعْوِجَاجِهَا، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعَارِفِينَ.

وَأَلْتَزِمُ فِيهِ أَنْ لاَ أَذْكُرَ إِلاَّ حَدِيثاً صَحِيحاً مِنَ الْوَاضِحَاتِ، مُضَافاً إِلَى الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَاتِ، وَأُصَدِّرَ الأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِآيَاتٍ كَرِيمَاتٍ، وَأُوَشِّحَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ضَبْطٍ أَوْ شَرْحِ مَعْنىً خَفِيٍّ بِنَفَائِسَ مِنَ التَّنْبِيهَاتِ. وَإِذَا قُلْتُ فِي آخِرِ حَدِيثٍ: مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَمَعْنَاهُ: رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسْلِم.

وَأَرْجُو إِنْ تَمَّ هٰذَا الْكِتَابُ أَنْ يَكُونَ سَائِقاً لِلْمُعْتَنِي بِهِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، حَاجِزاً لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ. وَأَنَا سَائِلٌ أَخاً انْتَفَعَ بِشَيْءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِي، وَلِوَالِدَيَّ، وَمَشَايِخِي، وَسَائِرِ أَحْبَابِنَا، وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَعَلى اللَّهِ الْكَرِيمِ اعْتِمَادِي، وَإِلَيْهِ تَفْوِيضِي وَاسْتِنَادِي، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

---

(١) قطعة من حديث مطول، أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري ٧/٥٨، ومسلم (٢٤٠٦)، والنَّعَم بفتح النون والعين، وهي الإبل، وهم يعدُّونها من أفضل أموالهم، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه.